دراسة في تأطير ادراكات العقل وتأصيل هدايات النقل

د.رعد حميد توفيق البياتي نور علي ابراهيم الزيدي

ملخص البحث

يتحدث البحث عن العلاقة بين العقل وسبل الهداية بالنقل بوصفها قضية ذات بعد معرفي إما ان تؤدي بالإنسان الى الايمان المطلق او تؤدي الى الالحاد، ذاكراً ان هذا التسابق بين العقل والوحي قضية قديمة حديثة لكون الاسلام بقدر ما جاء ليؤسس ويؤصل للحياة على منهج الوحي فانه في الوقت ذاته كان يعلي من شان العقل ويجعل منه ظهيرا للوحي في صياغة الحياة الانسانية وهداية البشرية ومن هنا نشأ النظر المتوازن بينهما والمحدد لدور كل منهما في الكشف عن الحق والتعريف به والالتزام بمخرجاته. و قد ربط الباحث ما جاء في القرآن الكريم والنظريات الحديثة ليثبت الاعجاز العلمي في توجه العقل عن طريق هدايات النقل وختم الباحث بحثه بنتائج عدة منها: إن الافتراض القائل بوجود تضاد وتناقض بين الرؤية الدينية للمعرفة والرؤية العقلية فليس مرده الى اخفاق الدين او العقل في ادراك المعرفة بصورتها الجلية ، بل يرجع الى وجود خلل في منهجية تطبيق القواعد بسبب مؤثرات ذاتية او موضوعية قد نكتشفها عندما نتجرد للبحث عن الحقيقة ونتخلى عن الفلسفية او الميول الذاتية التي تدفعها لتوهم التناقض. و ان لا دين يستمر ويجد القبول بلا عقل ولا عقل متزن بلا دين فالوحي والعقل في الرؤية القرانية للمعرفة متكاملان في الكشف عن الحقيقة وبيانها وتفسيرها.

The Knowledge System in the Holy Qur'an
A study in Framing the Mind Perceptions and Rooting the Trends of Transport

Prof. Raad Hameed Tawfiq Al-Bayati
Nour Ali Ibrahim Al-Zaidi

Abstract

The research studies the relationship between framing the mind perception and rooting the transport trends. The topic is described as a matter of cognitive dimension that either leads to absolute faith or leads to atheism. The race between reason and revelation is an old and modern issue because Islam comes ,in addition to establish life on the revelation path , to highlight mind and makes it the support for revelation in the formulation of human life and the guidance of humanity. Hence, the balanced consideration is aroused between them and each one has its own specific role to show the truth. And each has its own definition with the commitment to its outputs. The researchers link what the Qur'an has with modern theories to prove that the scientific miraculousness lies in the framing of the mind with the transport trends. the research is ended up with the results that the assumption that the existence of contradiction between religious vision of knowledge and mental vision is not due to the failure of religion or mind in the perception of knowledge in its obvious form, but due to a defect in the methodology of application .

النظام المعرفي في القرآن الكريم

دراسة في تأطير ادراكات العقل وتأصيل هدايات النقل

أ.د. رعد حميد توفيق البياتي

الجامعة العراقية / كلية العلوم الاسلامية

م.م. نور علي إبراهيم الزيدي

كلية الامام الاعظم ابو حنيفة (رحمه الله) الجامعة

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى اله وصحبه وسلم...

لابد من الاعتراف ان العلاقة كانت وما زالت بين العقل والنقل محل تجاذب وخلافات كبير بين العلماء والفلاسفة، بناء على جملة من المقدمات والمؤثرات التي تؤثر في بروز احدهما على الاخر فكلما شهد العالم قفزات نوعية في المجال العلمي والصناعي والاكتشافات الفريدة حسب ما يراه المفكرين من نتاج عقلي محض اخذ يعلن العقل يوما بعد يوم استقلاله الكلي او الجزئي عن المقدس ومتعلقاته بوصفها كلاليب تحد من انطلاقته المعرفية وتتناقض مع معرفته العقلية وتجلت هذه الحالة بظهور الالحاد بأشكاله وصوره المتنوعة وهي في الوقت ذاته تبحث عن ايجاد مبررات من اجل التمرد العلمي حول كل ما تجده من مقدس وديني وعقدي، وهذا الامر انسحب حتى على اتباع الاديان سيما المسلمين فبين من يجعل للعقل حدود تقارب النقل ومنهم من يجعلها تتجاوزه بل وتحد من فاعليته وبين من يعتد بالنقل ويلغي بالكلية العقل.

وهنا نركز على اهمية تناول موضوعات المعرفة بحقائق القران والوجود وتأرجح هذه المعرفة بين ما يدرك بالعقل او ما يمكن ان يؤصل هدايات النقل ووجوب الايمان بها، وما عداه يؤدي بصورة غير مباشرة وطويلة الامد الى الالحاد والقول بمحدودية النقل وامكانية هداياته للبشرية.

اذ ان هذا التسابق بين العقل والوحي قضية قديمة حديثة لكون الاسلام بقدر ما جاء ليؤسس ويؤصل للحياة على منهج الوحي فانه في الوقت ذاته كان يعلي من شان العقل ويجعل منه ظهيرا للوحي في صياغة الحياة الانسانية وهداية البشرية ومن هنا نشأ

النظر المتوازن بينهما والمحدد لدور كل منهما في الكشف عن الحق والتعريف به والالتزام بمخرجاته.

علما ان البحث في هذه الثنائية والتناظر بأحقية احدهما على الاخر كانت مجال سجال ونزاع شبه دائم كلما احدثت تحديات انبرى الفكر الاسلامي للبحث فيها فنحن نستذكر كتب ابن رشد الذي حاول التوفيق بينهما بعد دخول الفلسفات اليونانية الى دائرة الثقافة الاسلامية والامر اليوم وما تمر به الامة من تيارات تتبنى رؤى العقلانية الغربية بتطرف يحتم ان تعاد هذه القضية من أجل تأصيلها والتعمق فيها فاليوم الخطورة اكمن واشد، كون القران الكريم له عمق وذو رؤية كونية للمعارف لم يستطع الفكر الغربي والمد الثقافي من فلسفات يونانية ونظرات حداثية ان يخل بميزان تلك الثنائية اخلالا مؤثرا في صالح العقل على حساب الوحي في قيادة وتوجيه الحياة، ولم يتعد الامر التوفيق بينهما اما في عصرنا المعيش والمسلمون في اشد ضعفهم الشامل فنرى ان التحدي مخيف حقا بسبب امكانية الاخلال بتلك الثنائية في صالح العقل وبقيومية العقل في ادارة الحياة بمعزل عن الوحي حتى يصل الى اعدام دوره.

ومن خلال ما مر تجلت اشكالية البحث وهي ذلك الصراع بين الافكار في استقرارية النظام المعرفي في القران الكريم، وفي اسبقية العقل ام النقل في استحصال المعرفة لإدارة الحياة واستكشاف الوجود والغيب

وهنا لا بد من الاشارة الى اننا لسنا فقط من كتب بأحد جانبي العنوان بحثنا هذا من خلالما نشير اليه في الدراسات السابقة التالية : اذ كتب عدد قليل من الدراسات حول العقل في القران الكريم او الوحي فيه ايضا، ولكن جميع ما كتب لم يتناول النظام المعرفي فيها وتنازعنهما بالقيادة على الاخر، ومن باب الامانة العلمية سأذكر اهم ما اطلعت عليه من هذه الدراسات:

١. المعرفة الإنسانية، عبد الحليم الالوسي، بحث منشور في مجلة البوابة الجزائرية للنشر، وفيه اجاد الباحث ولكن لم يتطرف للمعرفة بصورة عامة عن الوجود والغيب.

٢. اعادة قراءة النص الديني بين أهل التأويل ومناهج المعاصرين، محمد الأمين بله الأمين الحاج معهد، جامعة الجزيرة/ السودان، مجلة فتوحات، العدد الثاني لعام ٢٠١٥

٣. المعرفة بين تعدد الرؤى الغربية وتكامل الرؤية الاسلامية، سلطان بلغيث، جامعة تبسة/ المغرب، ولكن الباحث لم يتخصص في المنازعة الوجودية والمعرفية بين القران الكريم والعقل.

وهذا ما اطلعت عليه واستفدت منه في بعض الاحيان .

وعليه ستكون محاولة تفكيك تلك الاشكالية من خلال التركيب الموضوعي للعلاقة بينهما عبر محطات موضوعية متسلسلة وهي من خلال المبحثين التاليين:

المبحث الاول: تأطير العقل وتأصيل النقل في القران الكريم

اولا: التفكيك والتركيب للمعرفة القرآنية وانعكاسها على قدسية القران الكريم

ان الثبات في الكليات الشرعية واصولها اصل محوري من ثوابت قدسية القران الكريم فالثابت في الاسلام هو مالا يتغير بتغير الزمان والمكان ولا يكون محل اجتهاد، فأحكامه باقية مهما تطورت الحياة لان المصالح التي روعيت في تشريعها ثابتة فطبقا لأصول الدين والشريعة الاسلامية ان من الثوابت الدينية هي القران الكريم والسنة النبوية الشريفة والتي يخضع لها الواقع المتغير بكافة جوانبه ولا يجوز اخضاعها للواقع ومن جملة الثوابت العقائد والغيبيات في الاصول ومقاصد الشريعة في الاخلاق والفضائل العامة.

ثانيا: المقصود بالمعرفة في القران الكريم

يجب التأكيد على أن القرآن الكريم ليس كتاب فلسفة، ولا كتب نظريات في علم المنطق ولا في المعرفة وليس كتاب أبحاث ينفصل بعضها عن بعض، ذلك لأنه منهج

رباني متكامل، شامل، لا يفيه حقه وصفه بالنظرية فهو في حد ذاته ليس نظرية في فن من الفنون، وهو يتجاوز البحث النظري إلى التطبيق الواقعي، وهو هدى ونور وشفاء للبشرية، كي تستقيم على طاعة الله وعبادته، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾[1].

بالنظر إلى المعاني اللغوية المستمدة من القرآن الكريم نجد أن مادة "عرف" وردت تحمل العديد من المعاني ومنها كالآتي:

المعنى الأول: بمعنى العلم وعليم، جاء في لسان العرب: « والعريف والعارف بمعنى مثل عليم وعالم»[2]، وبهذا المعنى تكون المعرفة متحدة المعنى مع العلم، كما قال ابن منظور: " العرفان: العلم"[3]، وفرق بينهما بعضهم، قال ابن سيده: وينفصلان بتحديد لا يليق بهذا المكان عرفه يعرفه عرفة وعرفانا وعرفاناً ومعرفة واعترفه"[4].

المعنى الثاني: التتابع والسكون والطمأنينة، جاء في مقاييس اللغة: « العين والراء والفاء أصلان صحيحان، يدل أحدهما على تتابع الشيء متصلا بعضه ببعض، والآخر على السكون والطمأنينة، فالأول العرف: عرف الفرس. وسمي بذلك لتتابع الشعر عليه والأصل الآخر المعرفة والعرفان. تقول: عرف فلان فلانا عرفانا ومعرفة. وهذا أمر معروف. وهذا يدل على ما قلناه من سكونه إليه، لأن من أنكر شيئا توحش منه ونبا عنه»[5].

(١) سورة المائدة: الآية ١٦.
(٢) ابن منظور، لسان العرب، مرجع سابق، ج٦، ص٢٣٦.
(٣) المرجع السابق، ج٦، ص٢٣٦.
(٤) المرجع السابق، ج٦، ص٢٣٦.
(٥) ابن فارس، مقاييس اللغة، مرجع سابق، ج٤، ص٢٨١.

المعنى الثالث: الرائحة الطيبة والمعروف الحسن، ورد في القاموس: « ومن الباب العرف، وهي الرائحة الطيبة. وهي القياس، لأن النفس تسكن إليها، والعرف: المعروف، وسمي بذلك لأن النفوس تسكن إليه»[1]. فمن المعنى الأول (العلم) قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾[2] ومن المعنى الثاني (التتابع والسكون والطمأنينة) قوله تعالى: ﴿وَجَاء إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾[3]، ومن المعنى الثالث قوله تعالى: ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾[5]. وبالنظر والتأمل في القرآن نجد أن مادة "عرف" وردت في مواضع عدة، فقد ورد الفعل بصيغة المضارع والماضي ٢٢مرة، دلالة على شرف المعرفة، وصلتها بالعلم وأن لها معنى أوسع وأعم دلالة.

وقد فرق قوم بينها وبين العلم، والبعض الآخر لم يفرق، قال الزبيدي في "تاج العروس": " العلم والمعرفة والشعور كلها بمعنى واحد"[6] ثم نقل التفريق في ذلك بين أئمة اللغة فقال: " والأكثر من المحققين يفرقون بين الكل، والعلم عندهم أعلى الأوصاف؛ لأنه الذي أجازوا إطلاقه على الله تعالى، ولم يقولوا: عارف في الأصح، ولا شاعر، والفروق مذكورة في مصنفات أهل الاشتقاق. ووقع خلاف طويل الذيل في

(١) المرجع السابق، ج٤، ص٢٨١. بتصرف.
(٢) سورة المائدة الاية ٨٣
(٣) سورة يوسف:٥٨
(٤) محمد:٦
(٥) الأعراف:١٩٩
(٦) الزبيدي، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق، تاج العروس من جواهر القاموس، (دارالهداية) ج٣٣، ص١٢٦.

العلم، حتى قال جماعة: إنه لا يحد لظهوره وكونه من الضروريات، وقيل: لصعوبته وعسره، وقيل: غير ذلك، مما أورده بماله وعليه الإمام أبو"الوفاء" الحسن "بن مسعود" اليوسي في قانون العلوم، وأشار في الدر المصون إلى أنه إنما يتعدى بالباء؛ لأنه يراعى فيه أحيانا معنى الإحاطة، قاله شيخنا"[1].

قال الإمام الراغب الأصفهاني: " المعرفة والعرفان إدراك الشيء بتفكر وتدبر لأثره وهو أخص من العلم ويضاده الإنكار، ويقال فلان يعرف الله ولا يقال يعلم الله متعديا إلى مفعول واحد لما كان معرفة البشر لله هي بتدبر آثاره دون إدراك ذاته، ويقال الله يعلم كذا ولا يقال يعرف كذا، لما كانت المعرفة تستعمل في العلم القاصر المتوصل به بتفكر، وأصله من عرفت أي أصبت عرفه أي رائحته، أو من أصبت عرفه أي خده، يقال عرفت كذا، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:٨٩]، ﴿فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾[2]، وقوله تعالى ﴿فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾[3]، ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ﴾ [البقرة:١٤٦]. ومما سبق يتضح أن الفرق بين العلم والمعرفة يتسم بالآتي:

١. أن المعرفة تتعلق بذات الشيء، والعلم يتعلق بأحواله.

٢. أن المعرفة ـ في الغالب ـ تكون لما غاب عن القلب بعد إدراكه، فإن أدركه قيل: عرفه، بخلاف العلم، فالمعرفة تشبه الذكر النفسي، وهو حضور ما كان غائباً عن الذِّكر، ولهذا كان ضدها الإنكار، ومنه: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ

(١) المرجع السابق، ج٣٣، ص١٢٦.
(٢) يوسف:٥٨.
(٣) سورة محمد: الآية ٣٠.

الْكَافِرُونَ﴾[1]. وضد العلم الجهل[2].

٣. أن المعرفة أعم من العلم، العلم خاص بما لم يسبق بجهل، لذلك يستعمل في حق الله تعالى العلم، ولا تستعمل في حقه المعرفة، لأن المعرفة هي المسبوقة بجهل[3].

٤. أن المعرفة علم لعين الشيء مفصّلاً عما سواه، بخلاف العلم فإن قد يتعلق بالشيء مجملاً.

٥. أن المعرفة تعني إدراك الحقائق، وانبثاقها من الأعماق، والعلم يعني فهم الحقائق وورودها من خارج ذواتنا، ومن ثم بقائها في عقولنا متحيزة متميزة.

٦. ومن الصوفية من يفرق بين العارف والعالم، فيجعل العارف أخص من العالم.

والفروق كثيرة وما سبق هو حسب اطلاع الباحث، وما يهمنا في هذا المقام هو إيضاح مفهوم المعرفة، وقد سبق إيضاح المفهوم بأن المعرفة هي إدراك الشيء بتدبر وتأمل في آثاره، وهي أخص من العلم، وتعني ممارسة النشاط المعرفي، كما يعرف عماد الدين خليل إسلامية المعرفة بأنها: "ممارسة النشاط المعرفي كشفاً وتجميعاً وتوصيلاً ونشراً من زاوية التصور الإسلامي للكون والحياة والإنسان"[4]، وبذلك تتضح لنا الصورة الشاملة للمعرفة ومفهومها، وأن دائرة انطلاقها هو العقل، ومحك بلورتها هو العقل، وبلا عقل فلا علم ولا معرفة، وهكذا تزداد أهمية العقل ودوره في البناء المعرفي في المنظور القرآني، وذلك لما للعقل من بالغ الأهمية في توجيه العلم والمعرفة باعتباره وعائهما الرئيس. والله تعالى أعلم.

(١) سورة النحل: الآية ٨٣.

(٢) انظر: يوسف القرضاوي، العقل والعلم في القرآن، مرجع سابق، ص٧٣.

(٣) ومن القائلين بذلك: محمد أمان الجامي، في شرحه لكتاب الأصول الثلاثة.

(٤) خليل، عماد الدين، مدخل إلى إسلامية المعرفة، (المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ ١٩٩١م) ص١٥.

ثالثا : المقصود من العقل والنقل:

العقل في اللغة يأتي بمعان عدة فهو الحبس اذ يحبس عن ذميم القول والفعل وهو الحجر والنهي[١]، وهو نقيض الجهل وقد وردت مادة عقل في القران الكريم بصيغ واشتقاقات مختلفة تسعا واربعين مرة جلها بصيغ المضارعة مما يبرز ويؤكد اهمية ومكانة العقل والتعقل في الاسلام.

واصطلاحا فهو (تلك المعلومات الضرورية الفطرية في الانسان التي تكون اساسا لكل نظر واستدلال)[٢] وقيل العقل هو العلم بوجوب الواجبات واستحالة المستحيلات ومجاري العادات[٣] وكل ما يصدر عنه فهي العلوم العقلية وهي ما تقتضي بها غريزة العقل ولا توجد بالتقليد والسماع وتنقسم الى ضرورة ومكتسبة وكلاهما يسمى عقلا[٤].

اما النقل في اللغة فهو يدل على تحويل شيء من مكان الى مكان [٥] واصطلاحا فهو التعاليم الدينية التي مصدرها الله تعالى ومبلغها الى الناس النبي المرسل، فالنقل بالنسبة الى المسلمين هو التعاليم التي جاء بها سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم مبلغا اياها عن ربه منضبطة في النص القرآني ونصوص الحديث النبوي الشريف[٦].

---

(١) موسوعة الفلسفة، عبد الرحمن بدوي، ط١ المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت لبنان ١٩٩١ ص١٥.

(٢) خلافة الانسان بين الوحي والعقل، عبد الحميد النجار ط٣ الدار العربية للعلوم لبنان ٢٠٠٦ ص ٧٢.

(٣) المواقف،عضد الدين الايجي، تحقيق عبد الرحمن عميرة ط١ دار الجيل بيروت ١٩٩٧ ج٢ ص ٨٧.

(٤) ابو حامد الغزالي، احياء علوم الدين، ط٢ دار المعرفة بيروت د ت ج٣ ص ١٦.

(٥) معجم مقاييس اللغة،احمد بن فارس، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر دمشق ١٩٧٩ ج١١ ص ٦٧٤.

(٦) عبد المجيد النجار ص ٦٨ ٦٩.

رابعا: الوحي القرآني وجوانب الهداية:

ان المجال الرئيس الذي يدور حوله الوحي هو الاجابة عن التساؤلات الوجودية وهداية الانسان لمجموعة العلاقات التي تربط بين الانسان وقضايا الغيب وتضبطها ويحدد بذلك طبيعة العلاقة الوجودية ويفسرها ويضعها في اطارها الصحيح، ولا شك ان هذه العلاقات [1] منها ما ينفرد الوحي ببيانه ومنها ما ينفرد العقل بتفسيره ومنها ما هو مشترك بينهما، فللوحي الاثبات وللعقل الفهم والتأويل والاستنباط.

لئن كانت معرفة العقل محدودة من جهة وموجّهة من جهة أخرى بوسائل المعرفة المختلفة، فأنّ له أن يملك القدرة على توجيه حياة الإنسان برسم مناهجها المطلقة، الصّالحة لكلّ زمان ومكان؟ ومن هنا يظهر الحجم الحقيقي للعقل الإنسانيّ رغم ما تروج له الحضارة الغربية من تعظيم لدور العقل، حتّى غدا إلاها بموت الإله عندهم، أمّا الواقع فيعارض كلّ ما يروج في هذا الشّأن، إذ يظهر يوما بعد يوم قصوره لذاته، وما تعانيه البشرية من ضياع ودمار إلّا دليل على ذلك، أمّا الإسلام ورغم تمجيده للعقل وإشادة آيات كثيرة به وبدوره في حياة البشر إلّا أنه أعطي حجمه، وظهرت جلية حاجته إلى التوجيه والتصويب، وإلى التزوّد بالحقائق الخارجة عن نطاق عالم الشّهادة، و التي يستحيل على العقل إدراكها لاستعلائها على حسّ الإنسان.

من هنا يظهر أثر الوحي في تبصير الإنسان بحقائق الوجود، وجمع شتات المعرفة الإنسانية في نظرة كونية توحيدية انتظمت بها العلائق في الوجود وانضبطت بها فهوم الإنسان ومداركه لحقيقة نفسه، وحقيقة الوجود من حوله، وحقيقة خالقه وواجبه نحوه. وحدّد الوحي للإنسان منهاج خلافته متمثلا في أحكام عملية يحقّق من خلالها

(١) ماجد عرسان الكيلاني، فلسفة التربية الاسلامية، ص٨٤.

العبودية الخالصة لله، والاستعلاء التام في الوجود دونّما احتقار للنفس أو تجبّر في الكون، بل في توازن وسير مطرد ثابت على امتداد الحياة الدّنيا مرورا إلى الحياة الآخرة عبر الموت.

وبهذا نشأت ثنائية طرفاها الوحي والعقل، تبصّر الإنسان بضرورتها في حياته، إذ بالوحي يتضح له منهاج غاية وجوده، وللعقل أوكلت مهمّة الفهم والتنزيل المؤدّية به إلى تلك الغاية[1].

و أثمر التلازم الفعلي لطرفي تلك الثنائية خير أمّة أخرجت للناس، كما قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾[2] كما استحقّت أن تكون شاهدة على غيرها من الأمم في قوله تعالى: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ ﴾[3]، وذلك لأنّ الله تعالى خلق الإنسان مستعدّا للفهم والإدراك، وأنزل إليه رسله مبشّرين ومنذرين لهدايته إلى الحقّ والخير، وبلوغ السّعادة في الدّنيا والآخرة، يقول محمّد نعيم ياسين: "من أجل ذلك خلق الله تعالى الإنسان في أحسن تقويم، ونفخت فيه الروح بأمره سبحانه لتكون موضوعا ومحلّا لكثير من الغرائز والقابليات والقدرات التي تمكّنه من حَل الأمانة، وفي مقدّمة هذه الغرائز غريزة

(١) عبد المجيد النجار، خلافة الإنسان بين الوحي و العقل، ص٢.
(٢) سورة آل عمران: الآية ١١٠.
(٣) سورة البقرة: الآية ١٤٣.

العقل وغريزة التفكير وغريزة الإرادة. ثمّ خلق الله تعالى للإنسان لخدمة تلك الروح وتنفيذ إرادتها بدنا صالحا للقيام بما تأمره به تلك الرّوح. ولو وقف الأمر عند هذا الحد لما استطاع القيام بتلك الأمانة حتّ يأتيه الهدى من رّبه في كتب منزلة على رسل من بن جنسه تبيّن له الحقائق والمصير، وما ينتقي وما يلتزم به، وكيفيات الطاعة المطلوبة"[1].

ويواصل الكاتب في بيان حاجة الإنسان إلى الوحي لما يزوّده به من أمور ضرورية، بإيراد قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٤ ﴾[2] وكذلك قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ١١٥ ﴾ «[3] ثمّ يقول : «و ذلك في نصوص محمّلة بالمعاني، جعلها سبحانه آيات منيرة قابلة لأن يستقبلها التقويم الإنساني، بحيث إذا استقبلها ونفّذها سعد في الدّارين. فظهر مِا تقدّم أن أحسن أوضاع الإنسان في الدّارين مرهون تحقّقه بتحقّق ثلاثة أمور معا: الأوّل هدى من الله عزّ وجلّ، والثاني إدراك هدى الله تعالى، والثالث تنفيذ الإنسان ذلك الهدى «[4]. ويظهر من كلّ ما سبق أنّ الوحي هو سبيل الإنسان إلى السّعادة في الدّنيا باتباع الهدى والوصول إلى الخير والنفع باتباعه وفي الآخرة التي ستكون حصادا لما كان منه في الدّنيا من عمل صالح، واتباع للصراط المستقيم، لتظهر آثار الوحي جلية في كونها المنهج القويم لتحقيق غاية الخلق ومقصد الوجود الإنساني.

(١) محمد نعيم ياسين، مباحث في العقل، ط٢٠١١م، دار النفائس، الأردن، ص٢٢٤.
(٢) سورة إبراهيم ٤٠.
(٣) سورة التوبة ١١٥.
(٤) محمد نعيم ياسين، مباحث في العقل، ص٢٢٤.

خامسا: ادراكات العقل ومعاركه الفلسفية:

بما ان العقل مناطا للتكليف وبما ان الله لا يكلف نفسا الا وسعها فهذا يعني ان منهج الخلافة باسره متأسس على العقل في تنزيله على الارض فهو وسيلة ذلك التنزيل ولولاه ما وجد منهج للخلافة اصلا، ولهذا كانت مكانة العقل كبيرة لقدرته تنزيل ما مر على ارض الواقع لقدرته على استيعاب صورة الوحي الالهي وقدرته على تجلي الوحي في الواقع حياتيا نافذا وبإسقاطه على الواقع. ولهذا كانت الآيات القرآنية تعظم من اهمية العقل وتبدي ثنائها على مستخدميه واللوم على تاركيه، كون النظر العقلي هو الفاتحة الضرورية لتحمل منهج انزال الوحي على ارض الواقع والاستخلاف، وعليه تحددت مهمة العقل في ادراك مجالين هما(عالم الغيب وعالم الشهادة او عالم التقوى وعالم التقنية).

١. عالم الغيب وهو بدوره يتكون من:

أ. جانب قابل للادراك العقلي وهو الجانب المتشيء وهو في حقيقة الامر ينتمي الى عالم الشهادة ولان الانسان في وقتنا الراهن لا يملك ادوات التنقيب عنه ومعرفته تم توصيفه من عالم الغيب وهو المذكور في قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾[1] فبقدر تراكم المعرفة وتوفر ادواتها تتضح الرؤية الغيبية التي كانت محجوبة عنه في عالم الاكوان وعالم الانسان المقيدة بما كان على الارض.

ب. جانب غير قابل للإدراك العقلي مطلقا وهو ما يطلق عليه حقيقة بالغيب المطلق والذي لا يخضع للتفكر والنظر ولا لتوفر ادوات المعرفة البشرية اذ هو لا يدخل تحت مدركات الحواس ولا تحت الاستنتاج المنطقي ولا معلومات عنه الا من خلال من نقل

(١) فصلت: ٥٣.

الينا من الخبر الصادق قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾[1]

٢. عالم الشهادة وهو ينقسم الى مجالين ايضا:

ا. عالم الآفاق وهو محور مجال العقل من المدركات الطبيعية لتحقيق عمارة الارض وبناء الحضارة ويكون مظهر البنى العلوم التقنية وتشخيص الرؤية الانسانية للتجربة . عالم الانفس وهو مجال الاجتماع الانساني وهو يتوسط العقل فيه بين استلهامه من الوحي وتنزيله على الواقع اذ العقل فيه دورا محدودا وعلة التوسط هو ان العقل فيه محتاج للمعطيات النقلية للقدرة على بناء الاحكام وبتجرد العقل عن النقل هنا يخلو العقل من تلك المعطيات المتعلقة بذات الانسان وحقيقته لهذا مزج الخطاب القرآني في كثير من آياته بين استقلالية العقل وهدايات النقل وفي احايين عدة عمل على تثوير العقل لإدراك هدايات النقل[2] واذا كان العقل لا يملك معطيات الانسان وفصول حياته فكيف يكون قادرا على اصابة الحق المطلق في تقدير ما ينبغي ان تكون عليه الحياة فعلا وتركا وان اقصى ما يمكن ادراكه هو ان يصيب الحقيقة النسبية المتحيزة بالظرف المكاني والزماني المعين بحسب ما تتوفر له من معطيات في ذلك الظرف وهو ما نراه مؤكدا في تاريخ الفعل البشري وما نراه من تلك المناهج الحياتية والتي جاء ينقض بعضها بعضا على مر الزمن حتى ليصعب ان نظفر بفكرة وحكمة عقلية في مجال التقدير ثبتت صلاحيتها لحياة الانسان في كل مكان وزمان.

سادسا: العقل بين التقديس والتهميش:

وما دمنا نتكلم عن تعطل العلاقة بين الوحي والعقل في حياة المسلمين وما أدّت إليه من عطالة، فإنه من النافع التعرّض إلى وجه من أوجه هذه الإشكالية، لخطورته المتمثلة في

(١) سورة الجن: الآية ٢٦.

(٢) كقصة سيدنا الخضر وسيدنا موسى عليهما السلام.

عدم انضباط مفهوم العقل في الفكر الإسلامي، وليس المجال في هذه العجالة التعرض إلى ماهية العقل، إنّما قصدت من إيضاح هذه النقطة أنّ العقل في الفكر الإسلامي تأرجح بين طرفي الإفراط حتّى أعطي منزلة تصل أو تتجاوز منزلة الوحي، وكمثال بسيط طرح المعتزلة في نقاط كثيرة مثل خوضهم في مسألة إيجاب الأفعال الإنسانية، إذ يرون أنّ العقل يمكنه أن يحلّ محلّ الوحي في إيجاب الأفعال في حالة إنسان لم يبلغه وحي، يقول عبد المجيد النجار: « أمّا المعتزلة فإنّهم أسّسوا رأيهم في الإيجاب على رأيهم في التقدير، فلمّا كان الوحي عندهم هو المقدّر لكلّ الأفعال الإنسانية، والعقل يشترك معه في التقدير في بعض تلك الأفعال، فإنّ الإيجاب فيما اختصّ الوحي بتقديره يكون موقوفا عليه، ولا مدخل للعقل فيه»[1] .

و أمّا الأفعال التي تدخل في مجال تقدير العقل، فإن جاء فيها وحي فهو الموجب فيها، والعقل ليس مدركا بذلك الإيجاب لإدراكه القيم التي بنى عليها، وإذا لم يرد فيها وحي على إنسان ما فإنّ ذلك الإنسان يكون عقله موجبا للأفعال التي هي من جنس ما يقدر على تقديره، ويكون بالتالي مستحقّا للمدح والذّم، وللثواب والعقاب، ولهذا فقد أثبت المعتزلة التكليف العقلي على من لم يبلغه الوحي"[2]. وهذا المثال كاف لما لقيه العقل عندهم من تقدير ساوى فيه الوحي في إيجاب الأفعال. ولعلّ هذا الموقف يؤدّي إلى إقحام العقل في ضرب من ضروب النقض في الحاكمية الإلهية بناءً على أنّ العقل وما وهبه الله إياه من قدرة على الكشف والنظر والتقدير، إلّا أنه ليس مؤهّلا للإيجاب، إذ هو من اختصاص الوحي وحده.

(١) عبد المجيد النجار، خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، ص٨٢.
(٢) عبد المجيد النجار، خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، ص٨٢.

أمّا في الطرف المقابل فنجد من يلغي أيّ دور للعقل، ويجعله متلقّيا للوحي مطبقا له دون إمكانية الفهم والتأويل والخوض في نصوص الوحي. فقللوا من شأن العقل، وغمطوه حقّه، وقصروا غاية المعرفة الإنسانية على ظاهر النصوص، ولا يخفى خطر هذا المنحى على حياة الإنسان، ووظيفته الوجودية التي لا تتحقّق إلّا بعقل مسترشد بالوحي، وفعل محكوم بالوحي والذي لا يفهمه إلّا العقل ليستخرج أحكامه وفق مقاصد إلاهّية من التشريع لا يصل إليها إلّا العقل. وبتهميش العقل يتجمّد، ويغلق باب الاجتهاد والإبداع في كافة مجالات الحياة، إذ الوحي جاء لهداية الإنسان إلى ما فيه خيره في الدّارين وأنه لا يعيش في الدّنيا إلّا من أجل الآخرة، ولا يكون في الآخرة إلّا على قدر ما قدّم في الدّنيا من طاعة وعبودية لله تستغرق كلّ أفعاله وأقواله، لتشمل نياته، وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم : «إنّما الأعمال بالنيات».

وإذا رجعنا إلى مدرسة التاريخ، فإنّها تعلمنا أنّ ما نجح به أسلافنا هو ثنائية الوحي والعقل معا، يقول عبد المجيد النجّار: « فليس الوحي والعقل إلّا وسيلتين للتعريف بالحقيقة فيما ينبغي للإنسان أن ينتهج من أنّاط في الفكر والسّلوك ليتعامل مع الكون بما يؤدّي إلى غاية وجوده، فكلّ بحث فيهما من هذا الوجه يرتبط شديد الارتباط بالبحث في حقيقة الإنسان ذاته، وفي وظيفته، وفي الغاية من وجوده»[1]، ومتّى انضبط مصطلح العقل في أذهان المسلمين، وعرفوا حقيقة وظيفته ومنزلته في الشريعة الإسلامية بما نزل في القرآن الكريم من نصوص تشيد بالعقل، وتعلي من شأنه، سيعرفون حينها أنه نعمة إلاهية رتب عليها الله تعالى التكليف، لحاجة الإنسان إلى إدراك أحكام الشريعة الإسلامية، وفهم الخطاب الالهيّ الموجّه إلى البشر، الحامل لهذه التكاليف والأحكام،

(١) عبد المجيد النجّار، خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، ص٣٥.

فهما يساعده على استيعاب الخطاب، وإدراك المقصد منه، ومحاولة تنزيله في حياة الإنسان في إطار الظروف الزمانية والمكانية، ومسايرة خصوصيات الإنسان المتباينة، لتصلح بها في النهاية حياته، وتستقيم بها أخلاقه وسلوكاته فيتحقّق بهذا الانضباط، الفهم الصّحيح، والتطبيق الجيد لمقتضى النصوص القرآنية.

المبحث الثاني: مخاطر الفصل بين العقل والوحي

المطلب الاول: قراءة معاصر لمخاطر الفصل بين العقل والنقل

المعضلة الكبرى في الحياة الإنسانية عندما تنشطر وتنفصل المعرفة الدينية عن المعرفة العقلية، حيث يأخذ انشطار المعرفة صورتين: إما بعزل الوحي، وإما بتعطيل العقل.

ففي الحالة الأولى يفقد الحياة أخلاقيتها وتنحط بالإنسان الى درك البهيمية، ولذلك فالفكر الغربي يعجز عن التكامل، ويعجب لإمكان تلاقي الروح والمادة والنفس والجسم .ذلك أنه يقوم في أعمق أعماقه على قاعدة الفصل بين القيم . ولا ريب أن هذا هو اخطر خلاف جذري بين منهج البحث الإسلامي ومنهج البحث الغربي .ومن هنا كانت فجوة ضخمة بين الفكرين في مجال دراسات النفس والاجتماع والأخلاق[1].

أما الصورة الثانية فتكوف عندما يعطل العقل وتمثلها الحضارة الروحية الشرقية مما ينتج عنها التخلف والفساد والانحراف والخروج عن وظيفة العمارة التي تعد الشطر الثاني للابتلاء، ومن أمثلتها ما أشار إليه قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ ﴾[2].

وكلا الصورتين لا يسهمان في تحقيق الاستخلاف على صورته الصحيحة، وهذا ما جعل عماد الدين خليل يصف الحضارة الغربية بالعرجاء والعوراء، لأنها قائمة على مبادئ العلمانية الغنية ماديا الفقيرَة روحيا، وساق ذلك الوصف في تمثيل طريف فقال: «إن المسيح الدجال ذو العين الواحدة، ربما كان رمزا لهذا الاختيار المر الذي قاد الأمم والشعوب إلى الضياع، يعود هذا الدجال في آخر الزمان ليرى الإنسان الذي استعبد نفسه للطغيان صورة نفسه :إنسان أعور، مشوه، ذميم الخلقة، من أجل أن يثير الاشمئزاز في

(١) المعرفة الإنسانية/ عبد الحليم الالوسي، بحث منشور في مجلة البوابة الجزائرية للنشر، ص ١٤.
(٢) سورة الكهف الآية : ٩٣

نفوس الأجيال المستعبدة، علها تثور ضد الذين سخروا منها فاقتلعوا عينها وحطموا ساقها... تماما كما سيعود المسيح العظيم في آخر الزمان لكي يرد-أغلب الظن -على الذين تنازلوا عن حريتهم وقرروا أن يعبدوه من دون الله»(١).

المطلب الثاني: التكامل المعرفي في المنظومة الاسلامية

مما لاشك فيه أنجاح التكامل المعرفي بين العقل والوحي يمكن أن يكشف لنا عظمة ما يمكن أن يقدم المسلمون للحضارة المعاصرة سواء على مستوى العلوم الإنسانية، أو على مستوى العلوم العقلية والطبيعية، والحقيقة أن الحضارة الغربية التي تقود العالم اليوم انفصلت فيها المعرفة فنسيت الله من خلال إقصاء الدين من الحياة فنسيها الله وحرمها من الاستمتاع بما توصلت إليه من العلم، وغدت كالدجال الذي ينظر بعين واحدة ويلعب بالعقول ويسحر الألباب بالإنجازات المادية التي لا تروي النفوس ولا تطمئن القلوب، فضاعت إنسانية الإنسان تحت الشعارات البراقة الحرية والديمقراطية والتقدم، لكن المطلع على خبايا هذه الحضارة يكتشف أنها غررت بالإنسان وجعلته يعيش ممزقا ومغتربا عن ذاته أو كما يسميها إقبال الغارة على الإنسانية ويؤكد كلامه رجاء جارودي حين يعتبر أن الداء الذي تعاني منه البشرية كلها هو نتيجة وجود قوة اسمها الولايات المتحدة الامريكية المتحالفة مع المال الصهيوني حيث ومنذ زمن طويل وهي تحفر للبشرية قبرها وتفرض عصر الانحطاط، وتقود في كل يوم شعوبا إلى الموت، بدءا من الهنود الحمر إلى المخطوفين من أدغال افريقيا إلى إبادة الأفغان والفلسطينيين ثم العراقيين بصمت وبتواطؤ مع بعض قوى العالم، التي تقدس العلم وهو في أشد حالات

(١) عماد الدين خليل، تهافت العلمانية ص ٢٣.

تخريبه، فأصبح يعطى للأسلحة المدمرة للإنسان والحضارة أسماء منمقة فأصبحنا نسمع عن القنابل الذكية والسباق الجنوني لامتلاك المزيد من أسباب الهلاك بينما تحاول حضارة الشذوذ تقنين الانحراف عن الفطرة وذلك من خلال عقد مؤتمرات تبدو في الظاهر لخدمة الإنسان والتنمية، ولكنها في الحقيقة تنحط بمقرراتها حتى تصل بالإنسان إلى أسفل سافلين، وهي في العمق تستهدف التمكين للادينية والفوضوية. في اللحظة التي يعاني فيها الانسان من ظلم الحضارة الغربية يعرض الإسلام منهجه الذي يصوغ معادلة حكيمة تليق بالإنسانية الشاملة تجمع فيها شتات القلب والعقل، والروح والجسد، والدين والعلم. وليس غريب المسلمين بمنهجهم الحضاري الإنساني الرباني وبوضعهم انتاج العقل في موقعه الصحيح بناء لا هدما، وسيلة لا غاية، وإدراكا لما يوصل لخشية الله وليس تقديسا للعلم، واستغناء به عن الله، بمعنى أن العلم والمادة والقوة في إطار الحضارة التي وظفت توظيفا ضد الانسان ينبغي إعادة صياغتها في إطار المنظومة الأخلاقية لا كمجرد مفاهيم محورية نظرية، بل كمشاريع حضارية إصلاحية تجعل الارتقاء بالإنسان روحا وجسدا من أولوياتها. وذلك بصياغة معادلة حضارية كالتالي :الحضارة الحقيقية = الوحي (القيم الأخلاقية) +العقل (الانتاج المادي)، والعقل لا يملك إلا ضوءا خافتا يحتاج إلى الاستمداد من نور الوحي لإكمال الرؤية الحسنة للأشياء، وكذلك من يحاول أن يتعامل مع الوحي بلا عقل، فإنه كمن يتحرك بساق واحدة سرعان ما يفقد توازنه فيسقط وينكسر، فالوحي يصنع الساجد والعقل يبني المساجد ليؤدي الانسان وظيفة العبادة والعمارة في آن واحد، وبجمالية عالية يتحقق معها شطري الاستخلاف العبادة والعمارة، وهنا ننقل عبارة لطيفة لعلي عزت بيقوفيتش يقول فيها»: فالعلم لا يعلِّم الناس كيف يحيون، ولا من شأنه أن يقدم لنا معايير . ذلك لأن القيم التي تسمو بالحياة الحيوانية إلى مستوى الحياة الإنسانية تبقى مجهولة وغير مفهومة بدون الدين . فالدّين مدخل إلى

عالم آخر متفوق على هذا العالم، والأخلاق هي معناه»[1]، فليس الانسان وحده في هذا الكون، وليس هو الحيوان. وإنما هو مخلوق مكرم للخالق الكرم الذي اختاره واستخدمه في الأرض ووكل إليه عمارتها بميثاق أمانة ومسؤولية فردية والتزام أخلاقي وليس هو حيوانا ولا خاضعا لغرائزه، ولكنه مهيأ وفق إرادته ليختار أحد الطريقين قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ ﴾ [2] والانسان بهذا المفهوم مهيئ لأداء الأمانة في ضوء هداية الله ومن هنا كانت حاجته إلى الوحي الإلهي[3].أما الفكر الغربي فإنه يقول بعكس ذلك تماما ويرى أن طبيعة الانسان ليست في حاجة إلى توجيه إلهي، وأن الانسان قد وصل إلى مرحلة الرشد، فلم يعد في حاجة إلى وحي السماء ، وهذا كله باطل تماما، لأن الحضارة المادية قد قدمت إنجازات للإنسان في المجالات المختلفة الخاصة بأسلوب العيش، لكن سلبت منه الطمأنينة وعجزت عن أن تمده بأي تقدم في المفاهيم النفسية والاجتماعية والروحية والأخلاقية.

المطلب الثالث: النظام المعرفي في القران الكريم والتكامل الوظيفي بين العقل والنقل.

يدفع بعض المفكرين الغربيين وبعض الاسلاميين الى ان هنالك صراعا متجذر ومتوالد بين العقل والنقل او الوحي وهو ما انعكس على خطابات بعض مفكرينا حاليا الذين تأثروا بفلسفات خارجية وخارج اطارها الاسلامي او يمارسون بحوثهم تحت وطأة ما يتلقونه من ثقافات او افكار تدعي التمدن وتحديث العقل والواقع، والحقيقة

(١) علي عزت بيقوفيتش: الإسلام والغرب، ص١٩١.
(٢) سورة البلد الآية: ١٠.
(٣) أنور الجندي: سقوط العلمانية، دار الكتاب اللبناني، مكتبة المدرسة، دون ط، ودون ت ص١٤٠.

انهم عاجزون عن ادراك تلك العلاقة المتبادلة الوظيفية بينهما لقصور التمييز والفصل بين مجالات كلا منهما بين هدايات الوحي وفعله وبين اطار ادراك العقل ونتاج فكره، وهو الداعي لهذا التوهم من الصراع بينهما، ولان طبيعة العقل تختلف تماما عن طبيعة الوحي فكيف يوضعان في مرتبة التقابل، لان العقل في حقيقته اداة اما الوحي فهو منهج لذا فالوحي يعطي منهج والعقل يجدول ويفصل ذلك المنهج لهذا ايجاد تلك المعضلة الفكرية هو من اصله خطا في المنهج الفكري لهؤلاء.

واذا بالإمكان للفلسفة ان تطرح هذا السؤال فانه في الاسلام لا مجال لطرح هذا السؤال كون النصوص الدينية لا تطرح اي اشكالية لو فهمت المسالة في سياقها النصي لا في سياقها التاريخي، فلا يوجد في نصوص الوحي ما يمنع من قبول ادراكات العقل بل نرى ان الفريضة الدينية تحتم وتلزم بالتطبيقات الواقعية للأحكام والقيم الدينية من خلال اجتهادات العقل وان تجعل قواعد الشرع ضوابط لحركة العقل. لهذا نرى الاسلام نظم العقل والنقل بوصفهما ما دخل للمعرفة بصورة جادة ومعاصرة ومحكمة وهو ما لم تعرفه اي من الفلسفات الدينية والوضعية السابقة فلم يكن الوحي في الاسلام مناقضا للعقل ولكنه جاء لينقي ويخلص ويشذب العقل من تناقضاته ويحرره من شكه ويهديه إلى اليقين[1]، ونخلص من هذا ان العقل المتزن ميزان صحيح فيما يتعلق بما هو منوط بالبحث فيه لكنه قاصر وعاجز عن ادراك كنه الاشياء بذاته وهذا لا يقدح في كونه ميزان معتبر.

اما اذا افترضنا تضاد وتناقض بين الرؤية الدينية للمعرفة والرؤية العقلية فهذا ليس مرده الى اخفاق الدين او العقل في ادراك المعرفة بصورتها الجلية، بل يرجع الى وجود خلل في منهجية تطبيق القواعد بسبب مؤثرات ذاتية او موضوعية قد نكتشفها عندما

(١) الحارث المحاسبي، العقل وفهم القران تحقيق حسين القوتلي، دار الكندي بيروت ط٣ ص ١٢٠.

نتجرد للبحث عن الحقيقة ونتخلى عن الفلسفية او الميول الذاتية التي تدفعها لتوهم التناقض، لذلك لا دين يستمر ويجد القبول بلا عقل ولا عقل متزن بلا دين فالوحي والعقل في الرؤية القرآنية للمعرفة متكاملان في الكشف عن الحقيقة وبيانها وتفسيرها.

ولان العقل الانساني يعمل بصورة ذاتية وبالهام الهي على استمرارية الاجتهاد والبحث عن مدراك معرفية فمن الطبيعي ان يلتقي مع الوحي والدين في ضوء هذه المسيرة لاكتشاف المجهول وتوسعة المدارك واذا كان العقل يستهدي بمعطيات الحواس ومعطيات الحاجة فان الوحي هنا بامتلاكه كليات الامور سيكون سندا للعقل وهاديا له يمده بالنور اللازم لاختصار الوقت وبلوغ المرام في مسيرة بحثه عن ذاته وحقيقة وجود الوجود قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ ﴾[1]

إذا تكلمنا عن ماهية كلّ منهما فسيبدو لنا عدم وجود تقاطع بينهما، إذ الأولى ملكة مخلوقة في الإنسان، والثاني كلام الله تعالى أنزله لعباده ليكون لهم هاديا، وقائدا نحو حياة موفقة وآخرة سعيدة، لكنّ النظر المدقق يوصلنا إلى إدراك علاقة وجودية بينهما، إذ أنّ الوحي جعله الله تعالى نافذة يخلص من خلالها العقل إلى فهم الوجود، وإدراك غايته، والانطلاق من خلاله إلى عالمي الشّهادة والغيب للإفادة منهما مما يقيم نظام الحياة، ويدفعها إلى الأحسن دوما، كما أنّ الوحي لا بدّ لفهمه من عقل نيّر، قادرا على استنباط مكامن الخير والصّلاح فيه من جهة، وعلى تنزيله في واقع الحياة ليغدو منهجا لها من جهة

(١) النور: الآية ٣٥.

أخرى على اعتبار أنّ الله جعل نصوص الوحي أوعية ذات قدرة لا متناهية على استيعاب الفهوم والمعاني المتجدّدة، ويفسّر ذلك أهلية القرآن لقيادة البشرية إلى قيام السّاعة. يقول عبد المجيد النجّار: « ويتحصّل مِا تقدّم أنّ الغاية الوجودية للإنسان، والمنهاج المؤدّي إليها اختصّ بالإرشاد إليهما الوحي الإلهيّ، وأوكلت مهمّة الفهم والإنجاز فيهما إلى العقل البشري، وهو التكليف الذي رتبت عليه المثوبة في حالة الفوز، والعقوبة في حالة الخسران».[1]

كما أنّ ترتيب التكليف الذي احتوته نصوص القرآن والسّنة على العقل دليل آخر على العلاقة الوطيدة بين العقل والوحي، إذ أنه لا يفهم التكليف، ولا تدرك مقاصده إلّا بالعقل، كما لا يكلف بالتشريعات إلّا العاقل الذي يقدر على استيعاب الخطاب الإلاهيّ المنظم لحياته وعلاقاته، ليكون وجود العقل لازمة من لوازم الانتفاع بالقرآن، ويكون الوحي لازمة من لوازم اهتداء العقل إلى الحقّ.

وقد أخذت هذه العلاقة حيزا من اهتمام الفكر الإسلاميّ، بين من ينكر هذه العلاقة سواء مِن غلبوا الوحي إلى درجة إلغاء العقل، أو الذين غلبوا العقل إلى درجة تقزيم دلالات الوحي أو إبعاده عن مجالات الحياة، خاصّة المعاصرة، وبين هؤلاء وهؤلاء بقيت هذه الثنائية بين الأخذ والرد، بينما الواقع يفرض معالجة جادّة لهذه الإشكالية، بتوضيح ما يؤدّي إلى السّداد، وإلى تفعيل هذه العلاقة بما يعطي الوحي من قومية، ومرجعية عليا، وللعقل من قدرة على الاستنباط والفهم والتنزيل، بدل انقسام المفكّرين المسلمين في جدل عقيم لا يزيد واقعهم إلّا تعفّنا وحياتهم إلّا بعدا عن روح الوحي وصفاء العقل.

(١) عبد المجيد النجار، خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، ص٢٩٣٠.

والتاريخ في الحقيقة هو المرآة العاكسة للماضي في الحاضر حتّى نستشرف منها للمستقبل، إذ لو رجعنا إلى عهد المسلمين الأوائل لوجدنا أنّهم أدركوا دون فلسفة هذه العلاقة، وقاموا بتفعيلها فكانت عقولهم وقلوبهم في ترقب دائم لجديد الوحي، وتلقّيه بالاستيعاب والتطبيق فهما وتنزيلا، ولنا في نساء الأنصار خير عبرة، لما نزلت آية الحجاب شققن مرطهنّ واسترن بها، لإدراكهنّ أنّ كلّ ما يأتي من عند الله لا بدّ أن يقابل بالتطبيق الفوري، لليقين – الذي نفتقد إليه– أنّ الخير كلّ الخير في الأوامر الإلاهية المتنزلة إليهم بالوحي، وحري بالأمّة الإسلامية أن تعتبر بهذه المواقف، خاصّة وهي على يقين أنّها مواقف أنتجت جيلا من العلماء العاملين، ورعيلا من المؤمنين المخلصين الذين حفظوا الدّين وبلغوه للعالمين خير تبليغ، لكن عندما تجزأت هذه الثنائية وضاعت حقيقة العلاقة بين طرفيها، تقطعت أوصال الأمّة، وضاع منها الرشد، وفقد الكتاب معناه، كما جاء في الحديث الذي حذّر فيه الرسول صلى الله عليه وسلم من يرفع العلم، لما رواه زياد بن لبيد رضي الله عنه قال: "ذكر النبي صلى الله عليه وسلم شيئا فقال وذاك عند أوان ذهاب العلم قال قلنا يا رسول الله وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن ونقرئه أبناءنا ويقرئه أبناؤنا أبناءهم إلى يوم القيامة قال ثكلتك أمك يا ابن أم لبيد إن كنت لأراك من أفقه رجل بالمدينة أوليس هذه اليهود والنصارى يقرءون التوراة والإنجيل لا ينتفعون مِما فيهما بشيء "[1]، وأرى أنّ تحذير الرسول صلى الله عليه وسلم متعلق بضياع العلاقة الوطيدة بين العقل والوحي، ودليل ذلك جوابه على استفهام زياد بن لبيد، الذي بدا عليه الاستغراب والدّهشة وهو حال كلّ الحاضرين، فكان ردّ الرسول صلى الله عليه وسلم من الواقع الذي يعايشونه ويعرفونه، بذكر أحوال أهل الكتاب الذين فقد كتابهم

(١) مسند الامام احمد، دار احياء التراث العربي ١٩٩٣م، رقم ١٧٠١٩.

معانيه، أي فقد تأثيره في الحياة، وهو تأثير مرهون بمدى فهم الكتاب، وترجمة هذا الفهم إلى سلوك حياة منبعث منه وراجع إليه[1].

ولن تتأتى هذه العلاقة إلّا بفتح باب الاجتهاد، المبني على النظر والاستنباط بما يُكسِب الإنسان القدرة على اقتحام العصر، ومواجهة تغيّرات الزمان والمكان بالوحي الذي ينتج لدينا وعيا يزوّده بالطاقة الإبداعية التي تجعله يستوعب الماضي، ويحلل الحاضر، ومن ثمّ يصل إلى نحت المستقبل وفق نظرة متجدّدة لا تسعى إلى تكرار صور الماضي، إنّما تهدف إلى إبداع صور جديدة للمستقبل.

(١) المعرفة الإنسانية/ عبد الحليم الالوسي، بحث منشور في مجلة البوابة الجزائرية للنشر، ص ١٤.

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى اله وصحبه اجمعين..

فإن ما كتب في هذا البحث هو محاولة في باب من أبواب العلم الكثيرة، ومساهمة من المساهمات العلمية التي قد يعتريها العجز والتقصير، ويصيبها الزلل واللغط، وتفتقر إلى التصويب والتسديد، ذلك أن العلم عزيز، لا يستطيع أحد أن يدعي أنه حاز أطرافه، وأمسك بتلابيبه، واستولى على معاقله، فمن الزلل أن يدعي الباحث ذلك أو يزعمه حتى زعماً.

وحسب الباحث أنه حاول محاولة يرجو أن يكون قد وفق ـ ولو بعض الشيء ـ في سبيل الإسهام المعرفي في تناول قضية ربما قد تغيب في أفلاك الكثير من الناس، هذه القضية المتمثلة في حقيقة، المعرفة وعلاقة العقل والوحي وكيف أمر القرآن بإعمال العقل في المسارات العلمية المختلفة، التي يحتاجها المسلم كفرد، ويحتاجها المجتمع كأمة مسلمة، ويحتاجها العالم كفرضية للتطور والتجديد والابتكار، ومن ثم إبراز الدور الفعلي لإعمال العقل المسلم في مناحي الحياة كلها، لمواجهة دعوات تعطيل العقل المسلم، وإيقافه عن العمل في تلك المسارات والمجالات الحياتية المختلفة.

أهم النتائج

١. يرى الفكر الغربي ان الطبيعة الانسانية ليست في حاجة الى توجيه الهي، وهذا ما اثر على سلب الطمانينة الروحية من القلوب وعجزت لذلك تلك العلوم عن ان تمده باي سكينة نفسية واجتماعية وروحية واخلاقية.

٢. الافتراض القائل بوجود تضاد وتناقض بين الرؤية الدينية للمعرفة والرؤية العقلية فليس مرده الى اخفاق الدين او العقل في ادراك المعرفة بصورتها الجلية، بل يرجع الى وجود خلل في منهجية تطبيق القواعد بسبب مؤثرات ذاتية او موضوعية قد نكتشفها عندما نتجرد للبحث عن الحقيقة ونتخلى عن الفلسفية او الميول الذاتية التي تدفعها لتوهم التناقض.

٣. لا دين يستمر ويجد القبول بلا عقل ولا عقل متزن بلا دين فالوحي والعقل في الرؤية القرآنية للمعرفة متكاملان في الكشف عن الحقيقة وبيانها وتفسيرها.

٤. بما ان العقل الانساني يعمل بصورة ذاتية وبالهام الهي على استمرارية الاجتهاد والبحث عن مدارك معرفية فمن الطبيعي ان يلتقي مع الوحي والدين في ضوء هذه المسيرة لاكتشاف المجهول وتوسعة المدارك ويكون سندا للعقل وهاديا له يمده بالنور اللازم لاختصار الوقت وبلوغ المرام في مسيرة بحثه عن ذاته وحقيقة وجود الوجود.